يأخذ مكانه في قلب التاريخ في حقبة تاريخية لاحقة ، أي له منطقه الخاص للمشاركة في العملية التاريخية .

ان « أم سعد » نموذج البطل الايجابي طلعت علينا من معطف « العجوز » . ان العالم الهادىء « للعجوز » استحال حسب منطقه الخاص الى عالم « اللا هدوء » ، فذاك الموات الظاهري القى بذور حركة قادمة وقوة خلاقة ، ومن سديم العطالة التاريخية خرج علينا عالم الحركة والدينامية الثورية ، عالم أياد تطرق أبواب الجديد ، ولا يخرج الجديد هنا من رموس بائدة بل من عملية مخاض طويلة أنتجت واعيد انتاجها لتصل الى ميزان قوى جديد يسمح بالحركة بدون عسف أو قيود .

أم سعد رمز الجديد ، ابن « العجوز » المتحرك في دائرة زمن ايجابي ، فالماضي ليس سجنا ، لكنه مجال مكاني — روحي نستعيده من خلال الحركة الثورية في الحاضر ، وعندها يصبح مستقبلا ، البطل هنا ( أم سعد ) يعيد انتاج التاريخ من خلال حضور مستمر للوطن في الماضي والحاضر والمستقبل .

ونحن هنا ازاء قطبين الوطن / البطل الايجابي ، أو البطل الذي هو شكل — ذات في التاريخ ، أما العلاقة الديالكتيكية بين القطبين الوطن / البطل فتدور في فضاء زماني هو التاريخ الذي هو في المحصلة الاخيرة الاثر الناتج عن التطلع المستمر للقطب الثاني الى الاول ، أي صراع الفلسطيني لاستعادة أرضه .

ولا يتم الصراع هذا بشكل مبسط ووحيد الجانب بل يتحدد ويتضمن من خلال جملة شروط : التواجد المستمر للوطن ، والواقع المعاش في المنفى ، ثم صراع الفلسطيني لتحمل الحاضر والسيطرة عليه . وعلى هذا فان معركة الفلسطيني والتي تجسدها أم سعد تصبح مضاعفة ، فهي معركة ضد بؤس الحاضر ، وتجاوز له للالتفات الى الوطن = الماضي من أجل المستقبل = الوطن .

في معركته ضد الحاضر المباشر / البؤس يصنع الفلسطيني ذاته ، وخلال عملية الصنع هذه يعي حجم مأساته ، فيصنع ذاته كانسان بالمعنى الفلسفي للكلمة ( براكسس ) ، ويصنع في الوقت ذاته نفسه كمقاتل من أجل قضية . وهكذا نعثر في هذا المسار على مستويات عدة : المنفى ، البؤس ، حركة الحياة الضرورية ، تملك الوعي ، ثم بدء المعركة . وعملية الصنع هذه لا تتم كما نرى انطلاقا من ارادة أخلاقية محضة ، بل تأتي كضرورة تاريخية أنتجتها جملة ظروف وشروط تاريخية خارجة عن ارادة الفلسطيني — اللاجىء .

وأم سعد هي محصلة هذا المسار ، فهي كلية ايجابية فاعلة على الرغم من شروطها البائسة ، وهي كبطل نمطي تصنع ذاتها والتاريخ من خلال تعايش مستمر للزمان بأبعاده الثلاثة . ولقد استطاع غسان كنفاني بموهبته الادبية أن يعطي صورة مادية متسقة لام سعد ، فهي ليست البطل — الفكرة الذي يتحرك في عالم ميكانيكي ، عالم فكراني ، بل هي انسان حي مشخص نراه ونلمسه في كل منعطفات حياتها اليومية ، ويذكرنا حذق غسان هنا بكلمات بريشت حين يقول « لا يجب أن نرى البطل الايجابي في صميم المعركة فقط ، بل يجب أن نراه أيضا كيف يذهب الى الخباز ويشتري خبزه » .

والآن ما هي المستويات التي يمكن أن نعثر عليها في شخصية أم سعد . قبل أن نبدأ ذلك يجب أن نؤكد بأننا لا نرى في أم سعد بطلا متفردا بل نرى فيها نموذج البطل الايجابي ذي خصائص ولدتها ظروف تاريخية محددة ، فصوتها هو « صوت الطبقة الفلسطينية التي دفعت غاليا ثمن الهزيمة »(١١) .